

تحديات الدعوة والثقافة الإسلامية في إفريقية جنوب الصحراء

كلية الإمام الهادي

د. أحمد النعمة محمد النعمة

المقدمة:

إفريقيا جنوب الصحراء جزء من القارة الإفريقية التي تجري فيها عمليات التنصير ويخطط لها الغرب منذ زمن بعيد، غفل المعابر على اللغة العربية والدعوة الإسلامية ووضع التحديات التي تعرقل اندماج الثقافة العربية والإسلامية في مجتمعات إفريقية جنوب الصحراء. عمد المستعمر على اجتثاث جذور الثقافة العربية الإسلامية، وفرض مؤسسات تعليمية حديثة، تستمد فلسفتها ورؤاها من الثقافة الغربية، وهناك كثير من المواقف التي ترمز لبطش المستعمر وقسوته ووحشيته، ورغبته في طمس مظاهر الثقافة العربية والإسلامية استئصال شافة العلماء. عمل التنصير على محاربة مجتمعات إفريقية جنوب الصحراء. بمحاربته للثقافة الإسلامية ولغة الإسلام. والتنصير هو المسؤول الأساسي عن تحطيم مجتمعات إفريقية جنوب الصحراء. بتحطيمه لنهضة المسلمين هناك، هو السبب الأساسي في تخلف وتفرقة وتفكك مجتمعات إفريقية جنوب الصحراء. من الواقع اليوم أن اللغة العربية أصبحت لغة عالمية ومن اللغات الدولية، حيث إنها اليوم من اللغات التي يتعامل بها في هيئة الأمم المتحدة، ودخلت كافة أجهزة هذه الهيئة. لذا كان لا بد من الاهتمام الكبير بها، وخاصة في الدول العربية جماعات وأفراد، وذلك لأنها لغة القرآن العظيم، والذي يتمنى كل مسلم أن يقرأه ويتعبد به، وأن يكون له النصيب الوافر من هذه اللغة، حتى يتمكن من صحة قرأته، ويتقرب إلى الله زلفى، علاوة على تداخل العرب والمسلمين على مدى حقبة من الزمن، مما يشجع على تعلم هذه اللغة، التي حملت لقرون عديدة حضارة المسلمين.

تتعرض القارة الإفريقية لهجمات تنصير شرسة بهدف اغتيال العقيدة الإسلامية، ومحاربة انتشار اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن ولغة الثقافة الإسلامية. وقد أدرك أعداء الإسلام أن السودان أخطر معبر للإسلام وللغة العربية إلى الدول الإفريقية المجاورة إذا استقر على أسس إسلامية... لذا جاء التخطيط لأهداف فصل الجنوب عن الشمال. تحت شعار: إما أن يكون شمالاً بلا عروبة وإسلام. وإما أن ينفصل الجنوب عن الشمال.

انتشار الدعوة الإسلامية واللغة العربية في إفريقية جنوب الصحراء:

منذ عصور خلت كانت توجد صلة بين الجزيرة العربية وشرق إفريقية لأن باب المندب قد تحول في بعض فترات الجفاف إلى معبر أرضي سلكته الهجرات القديمة، من جنوب الجزيرة العربية إلى شرق إفريقيا والبحر الأحمر. وبصورته الحالية لم يكن كما كان عليه الاتصال بين الجزيرة العربية وشرق إفريقية في القديم. والمتتبع للرحلات والهجرات إلى شرق إفريقية بعد إشراق الدعوة الإسلامية يستطيع أن يميز ثلاثة مراحل:

- 1/ مرحلة الرحلات التجارية.

2/ مرحلة الإقامة في الجزيرة الساحلية.

3/ مرحلة إنشاء المدن الساحلية.

وتعتبر مرحلة إنشاء المدن الساحلية من أهم هذه المراحل الثلاث، وقد بدأت هذه المرحلة بعد أن تعرف العرب على طبيعة السواحل الإفريقية عن قرب، وثروة هذه المنطقة فتخبروا المواقع الساحلية المهمة وأنشأوا العديد من المدن.⁽¹⁾ أخذت المنطقة تستقبل جماعات حامية من الشرق والغرب، وجماعات مصرية من الشمال... ظهرت آثار هذا الخليط بوضوح في مخلفات المجموعة الثقافية... أما عن حضارتهم، فهم مجموعات ثقافية تدل آثارهم على أنهم قوم مارسوا الزراعة بوصفها حرفة أساسية تساندها حرفة الرعي.

ثم أن لغتهم ذات أصل حامي، ثم دخلتها بعض المؤثرات الزنجية، وأن وجود الشبه بين اللغات وبين سكان هذه المناطق لا يعني أنهم يرجعون إلى أصل واحد- بل يرجع إلى هجرة هذه الجماعات حيث تركت بعض الآثار اللغوية، وربما كان للاتصال التجاري بين تلك المناطق وغيرها أثر في نشر اللغة والثقافة بينهم.⁽²⁾ والمعروف أن المسيحية حين دخلت مصر في القرن الأول الميلادي، اجتذبت إلى

صفوفها عدداً من المصريين، وغيرهم من سكان البلاد، غير أن الاضطهاد الذي حل بهم وخاصة منذ القرن الثالث الميلادي أدى إلى هجرة كثير من المسيحيين المصريين إلى منطقة طيبة والصحراء الغربية وجهات النوبة السفلى والوسطى... ويبدو أثر هذه المراكز المسيحية الجديدة ظاهراً⁽³⁾.

لقد كان لسلطنة وداي دور بارز في نشر الإسلام واللغة العربية في المنطقة بوجه عام، فقد كانت العربية لغة الحكام والرعية، تستخدم في الشؤون العامة والرسمية ويتحدث بها السكان من عرب ومستعربين، وكانت مملكة وداي على صلات وثيقة بمراكز الحضارة الإسلامية في دارفور وطرابلس والقاهرة، وكان سلاطين هذه السلطنات يولون عناية فائقة بالمساجد والمؤسسات الإسلامية ويخصون العلماء والطلاب بالأعطيات والمنح ولم تكن رعايتهم مقصورة على رعيتهم أو اهتمامهم منحصراً على حدود ملكهم، ومما تورده المصادر التاريخية في هذا الصدد، أن السلطان محمد صالح دود مرة سلطان وداي، كان قد أرسل ستة عشر قنطاراً من العاج فبيعت ببغاوي وأمر بثمانها فأرسلت أربعة أخماسه إلى جوامع مكة والمدينة، وأرسل خمسة لمعاونة طلاب وداي وسنار ودارفور بالأزهر، وإلى جوامع مصر المحروسة⁽⁴⁾. ومن العوامل التي ساهمت في اتساع هذه الهجرات أن حكام هذه الدول الإسلامية التي قامت في هذه المنطقة كانوا ينتسبون إلى أصول عربية، يحكمون بشريعة الإسلام ويتخذون العربية لغة في دواوينهم ومجالسهم ومكاتباتهم ومعاملاتهم وفي كل شأن من شؤون معاشهم، وكان من جراء ذلك، أن غدت اللغة العربية هي اللغة المشتركة لجميع السكان، بالرغم من وجود عدد كبير من الجماعات غير العربية التي تحفظ بلهجاتها... ويجدر بنا أن نشير إلى أن هذه المجموعات قامت بدور مهم وأساسي في التمكين للثقافة العربية، وحسبنا أن نذكر في هذا المقام أن العناصر غير العربية كانت قوام الممالك في هذه المنطقة، فدولة وداي كانت تحكمها أسرة المابا ودولة كانم -برنو، كانت تحكمها أسرة من البرنو ثم من الكانبو⁽⁵⁾.

وفي عام 1960م جملة سكان إفريقيا وقدرهم 275 مليوناً فإن 90 مليوناً منهم من المسلمين. وجاء في تصريح للداعية المسيحي المشهور: بلي قراهام أنه في زيارته المتعددة لإفريقيا قابل عدداً من الناس أكدوا له أن مستقبل إفريقيا أن تكون مسلمة... ويقول كثير من المعنيين بهذا الأمر أن الانتشار المنتظر في إفريقيا سيهيـر

كل من سيشهده كما فعل انتشار الإسلام في القرن السابع الميلادي ... والمهم أن في هذا الأمر أن نسبة المسلمين في إفريقيا جنوب الصحراء وصلت درجة لم تصلها في التاريخ أبداً⁽⁶⁾.

الفلاني:

قوم مسالمون، هادئون ، بارعون في زراعة القطن والقمح ، كرماء متعاطفون، يشبهون التماثيل المصرية القديمة ... ثم كان انتشارهم على هيئة مروحة في الغرب الإفريقي وإن كانت يد هذه المروحة- كما قيل -تمثلت في نهر (الجمبيا) ثم بعد ذلك في نهر (النيجر) وقد عرفوا بالتغلغل السلمي في كافة تقدمهم، وكان هذا التغلغل كأوضح ما يكون في إمارات (الحوصة) ذلك لأنه لم تكن هناك نظرية تحكم حياتهم، أو حركة قومية تلم شتاتهم... وقد جاءتهم قوة كبيرة يخشى خطرهما، وإن كل ما يحتاجونه الزعيم الذي يقودهم ويظهر عقيدتهم... وقد توفر لهم هذا على يد الشيخ (عثمان بن فوديو)... كانت دعوة لأن يلامس الإنسان أعماق دينه وأعماق نفسه، وأعماق الحياة... ومن هنا نراه يندفع بتعاليمها إلى الناس ونرى الناس يسارعون بالانضمام إليه، كلما اندفع بهم إلى جوهر الأشياء، كلما طرح عن الدين قشوره، وطرح عنهم في الوقت نفسه زيف الحياة، والتافهات الصغيرة التي تأكل طموحهم، وتقضم أشواقهم، وتقيدهم عن حركة الاندفاع في الوجود... نجد عدداً وفيراً من الفلانيين كانوا موجودين في الإمارات، وكانوا يشكلون جانباً كبيراً من ملامحها ... وعلى كل فقد انتقل من فترة كفاح إلى فترة كفاح أخرى حتى وضع بصماته القوية على ما يشكل الآن نيجيريا الشمالية، وبعض الأجزاء المجاورة لها⁽⁷⁾. وقد امتد نشاط جهاد الفلاتة على بعض الأقاليم الوثنية مثل يوربا والورين ونوبي وبوشي وابنه محمد بلو أميراً للمؤمنين.

وكان لنجاح عثمان بن فوديو وأتباعه أثر كبير على سائر بلاد السودان والوسطى والغربية إذ سار على نهجه ثوار آخرون ففي ماسينه، قاد الشيخ حمد بري ثورة مماثلة (1810-1818م) أدت إلى إنشاء حكومة إسلامية تقارب الصورة المثلى التي يصبو إليها المصلحون المسلمون. ولكن هذه الدولة سقطت أمام موجة أخرى من الجهاد قادها الحاج عمر بن سعيد، من مريدي الطريقة التجانية، وقد استهل دعوته بجهاد قبائل البامبو الوثنية حتى سيطر على معظم إقليم السنغال والنيجر⁽⁸⁾.

اليوروبا:

يذكر المؤرخون أن (اليوربيين) من الكنعانيين، ويذكرون أنهم قدموا إلى نيجيريا الحالية من الجزيرة العربية. وقد استمر هؤلاء في سيرهم حتى وصلوا إلى مدينة (يوروبا) بمعنى ان رحلتهم كانت من نهر إلى نهر، أو بمعنى آخر كانت من النيل إلى النيجر.

شهد العام 1895م تسلط الانجليز التام على كافة إمارات اليوربيين، وفي القرن العشرين كان المسلمون يعتصمون (بالمدين المسورة) ويمثلون طبقة من التجار الزراع... وبمعنى آخر كان الإسلام يقف عند حدود المنطقة الاستوائية، والمنطقة شبه الاستوائية. ومع أن جل أهل افريقيا كانت تسود فيهم عادات وطبائع البداوة، إلا أن الإسلام قد طبع هذه القبائل بطابعه ووسمها بميسمه... وحينما صاهرت هذه القبائل وتزوجت من نساء النوبة أحدثت واقعاً اجتماعياً جديداً جعل النظام الاجتماعي القديم يأخذ في التلاشي والاندثار، لأن الحضارة الإسلامية الوافدة أصبحت تمثل فكرة البديل وإعطاء الحياة معناها الروحي، الذي يبارك في العمر ويبدد الحيرة، إذ لا نظام للدول مع اختلال التوازن في المجتمع، ولا نظام للمجتمع مع اختلاف التوازن في الأفراد⁽⁹⁾. ونرى أثر التدين ظاهراً في فئة جمعت بين علم الظاهر والباطن وانقطعت للعبادة، وأحد هؤلاء كان يسد خلوته بالطوب شهوراً يجيء أولاده الصغار بكون عنده لرويته دون جدوى، وفوق ذلك لم يكن يقبل هدية ولا جاها ولا شفعة عند سلطان، ولا كان له حرفة من زراعة أو تجارة، وكان أحدهم يلازم الخلوة قائماً الليل صائماً النهار، ملازماً أذكار الله كلها. ويتلو صلاة رسول الله ﷺ في كل ليلة أربعين ألفاً، وبالنهار ثمانية عشر ألفاً، وكل ما تم مائة ينتقل بعدها من سارية إلى سارية. ومنهم من تشقق يده من كثرة الوضوء والغسل فيشتهر بالخشن لذلك. وكما روي أن أحدهم حج أربعاً وعشرين حجة، اثنتي عشرة ذهاباً وإياباً واثنتي عشرة جواراً⁽¹⁰⁾. وكما قال النبي ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس للحج المبرور ثواب إلا الجنة»⁽¹¹⁾ وبهذه الصفات وغيرها ارتفعت مكانتهم عند العامة والخاصة. ومن ثم تسنى لهم أن يؤدوا أدواراً مهمة في حياة البلاد الاجتماعية. فصار العلماء والفقهاء أدلة العامة وقادتهم في سبيل الدين، كما كان هذا الوقت نفسه هو عصر الانتقال باللغة العربية من مكانتها الأولى

كلغة فاتحين، إلى موقعها الراسخ كلسان للعامة والخاصة على حد سواء. وقد أفرز هذا الانتقال الحضاري علاقات دينية واجتماعية جديدة في شكلها ومضمونها، إذ كانوا حديثي العهد والمعرفة بالدين الإسلامي الجديد. يعتمدون اعتماداً تاماً على الفقهاء والعلماء لشرح أمور دينهم وممارسة شعائرهم، فاكسبوا بذلك مكانة وموقعاً رفيعين في نفوس الناس، باعتبارهم قادة الروح وأصحاب المعرفة الواسعة بشؤون الدين والدنيا على حد سواء. ومع توسع الدولة وازدياد الملّة المسلمة، زادت رغبة الناس في معرفة الدين وتعلمه، وأصبح الفقهاء والمتصوفة في حاجة إلى من يعينهم على تعليم جموع العامة، فنشأت طبقات من الشيوخ الفقهاء الذين ورثوا المعرفة والفقه من شيوخ أعلى. عرف مثل هذا التسلسل في النظام الصوفي «بسلوك الطريق» إذ يسلك الطريق الفقيه على يد شيخه ثم يقوم هو بتعليم غيره لیسلكوا بدورهم الطريق. وقد نشأت من ذلك سلسلة من الأتباع المساعدين للفقهاء على بث العلم والثقافة الدينية وسط العامة وصارت جماعات من تلاميذ وأتباع الفقهاء والشيوخ هم الصلة الواصلة بين الفقيه والعامة... ثم انضاف إليها تلامذة الشيوخ وأتباعهم هالة جعلت من أولئك الفقهاء حقيقة أو تهويلاً ذوي خوارق وكرامات⁽¹²⁾. بهذه الصفات وغيرها ارتفعت مكانتهم عند العامة والخاصة، ومن ثم تسنى لهم أن يؤدوا أدواراً مهمة في حياة هذه المجتمعات الاجتماعية.

ومهما يكن من شيء فإن أحداً لا ينكر تلك (الوحدة) التي حققها الإسلام للقبائل، وكيف أنه أحدث نوعاً من الرخاء بسبب التجارة وفتح الأسواق، وكيف أنه اهتم في كل مكان حل فيه بالقراءة والكتابة والنظافة النفسية والجسمية... وأنه كان دعا لاحترام الذات واحترام الحياة، وحقق نوعاً من المصالح بين الإنسان ونفسه وبينه وبين مجتمعه، وبين المجتمع والعالم كله. ومن هنا أعطى الإفريقي الإحساس بالحرية، والكرامة والمسؤولية عن الحياة. فهو لم يقف عند كسر الصحراء بل تعداها إلى إقامة عشر دول إسلامية خلف هذه الصحراء في وقت مبكر. وإن كان الإسلام لم يقم فيها بالدور الفعال مثل ما كان في الشمال والشرق والغرب، لأنه لم يحمل إليها من العرب ولا من الأفارقة أنفسهم، وإنما حمل حملاً من العمال المسلمين الذين كانوا يستقدمون من جزر الهند الشرقية والذين يعرفون باسم (الملايا) مع أن عدداً وافراً من الهنود المسلمين قد دخلوا البلاد واستطاعوا أن يطرقوا بالإسلام أبواب

(الهوتنتوت) إلا أنهم لم يستطيعوا أن يكسبوا للإسلام أرضاً كبيرة، وذلك لأن الأوروبيين كانوا لهم بالمرصاد. وكانوا يمثلون طبقة مجهدة من العمال. رغم أنهم قد شهد لهم بالسلوك الحسن واحترام الأديان الأخرى⁽¹³⁾. وعلى كل فما كان يريد هؤلاء المسلمون كان لا يخرج من الآية الكريمة التي تقول: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَلََّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)⁽¹⁴⁾

إن الإسلام في مسيرته التاريخية التي بدأت منذ منتصف القرن السابع في القارة الإفريقية استطاع أن ينتشر في معظم النصف الشمالي من القارة بين أغلبية سكانه، كما نفذ من الساحل الشرقي لإفريقيا إلى يوغندا وكينيا وتنزانيا، وتسرب مع بعض المهاجرين للكنغو ومنطقة البحيرات ووفد، إلى إفريقية الجنوبية مع بعض الهنود المسلمين، وما زال يكتسب آفاقاً جديدة يوماً بعض يوم⁽¹⁵⁾.

التحديات التي أثرت على انتشار الدعوة والثقافة الإسلامية في إفريقية جنوب الصحراء:

حاضر الإسلام في إفريقية يواجه تحديات كبرى وأهمها المحاولات الكنسية المتكررة لإيقاف الزحف الإسلامي وإضعاف فعاليته ... والصراع بين المسيحية والإسلام، أو قضية انتشار الإسلام في إفريقية، من أهم ما يشغل أتباع الدينين عامة والكنيسة بوجه خاص في وقتنا هذا، ولكن نادراً ما يظهر هذا الصراع فوق السطح. التبشير: أولاً تعريفه التعريف اللغوي: التبشير مصدر بشر بالشيء، إذا أذاعه أو أعلنه أو أخبره وعادة يطلق على الإخبار بالشيء الحسن⁽¹⁶⁾. حركة دينية سياسية استعمارية لإيصال دعوة التبشير إلى شعوب لا تدين بها (واختصت المسيحية بهذا المصطلح دون غيرها ويقصد به فقط الجهود المنظمة والمقصودة والمدعومة من قبل حكومات أو هيئات لدراسة العالم الإسلامي من جميع نواحيه، ووضع الخطط، للقضاء عليه وتشويهه في نظر المسلمين وغير المسلمين، فالتبشير إحدى وسائل الاستعمار بلباس الدين المسيحي. لقد بدأت حركة التبشير والتنصير بشكل فردي، ومنذ القرن الخامس عشر بدأت حركة التبشير تأخذ شكلاً جماعياً منظماً، بعد الاكتشافات البرتغالية في إفريقية، وبعد ذلك أخذت تَرِدُ الرسائل التبشيرية الكاثوليكية وتبعتها

البروتستانتية الإنجليزية والألمانية والفرنسية⁽¹⁷⁾. يقول الكاتب: (في 1830م سّيرت فرنسا جيشاً لاحتلال الجزائر واصطحبت معها جيشاً من المبشرين، ولم تمض سنوات حتى أصبح الكاردينال شارلز مارسيل ألمان لافيغري قائداً لهذا الجيش، ومطراناً للجزائر وكبيراً لأساقفة إفريقية ومبعوثاً للبابا في الصحراء الكبرى وبلاد السودان، وكان حلم هذا الكاردينال هو تحويل إفريقية إلى التعاليم الكاثوليكية، وفي سبيل هذا الغرض منحت فرنسا ما يشاء من الأموال ليواصل عمله المقدس) وكانت أهداف التبشير القضاء على الحكم الإسلامي والوحدة الإسلامية وإنهاء الخلافة الإسلامية المتمثلة في الدولة العثمانية، فعندما اجتاحت الجيوش الغربية تركيا اشتترطت أنها لن تنسحب إلا بعد تنفيذ الشروط التالية:

1. إلغاء الخلافة الإسلامية وطرد الخليفة من تركيا ومصادرة أمواله.
 2. أن تتعهد تركيا باخماد كل حركة يقوم بها أنصار الخلافة.
 3. أن تقطع تركيا صلتها بالإسلام.
 4. أن تختار لها دستوراً مدنياً بديلاً من دستورها المستمد من أحكام الإسلام.. وإلغاء المحاكم الشرعية، والمدارس الدينية، والأوقاف الإسلامية، وأحكام الميراث، واستبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية، واستبدال عطلة يوم الجمعة بالأحد، وانتهى ذلك كله عام (1929م)⁽¹⁸⁾ ذاعت أنباء المكاسب التي تدرها تجارة العاج... فأسرع التجار الأوروبيون إلى إفريقية بأعداد وافرة وإمكانات هائلة، لجمع الأرباح التجارية الضخمة.
- لم يكن نشاط أوربا يومئذ قاصراً على التجارة فإن الرجل الأبيض كان يعد نفسه صاحب رسالة فريدة لنشر المسيحية والحضارة الأوروبية، فخفت سلطات التبشير الكاثوليكية إلى المنطقة وأرسلت البعثات... وكان واضحاً منذ البداية أن السياسة والتجارة والتبشير كانت أوجه نشاط أوربي متعاونة مع بعضها متفاهمة فيما بينها، فالتجار يعيرون سفنهم وبواخرهم للمبشرين ويقدمون لهم شتى التسهيلات، والقنصليات تحمي التجار ومصالحهم، وتحمي المبشرين ونفوذهم، والمبشرون يساعدون التجار فيما يطرأ لهم من مشاكل محلية⁽¹⁹⁾.

لقد اهتم الأوروبيون بدراسة المجتمعات الإفريقية عامة والإسلامية خاصة، بغية عزلها سياسياً وثقافياً، والسيطرة عليها فكرياً وروحياً... فقد دخل المبشرون مع المستعمرين في وقت واحد، وهناك سعى الأسقف قوين للحصول على تصريح من

الإدارة البريطانية في السماح له بتنصير أبناء المسلمين، ولما حرم من ذلك خوفاً من إثارة حفيظة المسلمين، أستاذ قوين استياءً شديداً جداً من هذا التصرف وورد في مذكراته: (وبينما كنت مهموماً حزينا في داري على إثر عدم التصريح لي بتنصير أبناء المسلمين.. إذ جاءني. رسول يدعوني على عجل لسراي الحاكم العام... فقال لي: لقد صرح لك بافتتاح مدارس في الشمال... ورقص قلبي فرحاً، وأيقنت أن الله استجاب دعائي، وما الفرق بين عدم السماح لي بتنصير المسلمين والسماح لي بتعليم أطفالهم؟ وهكذا بدأت العمل فوراً)... ونتيجة هذه الجهود المكثفة بين المسلمين وسواهم، تحت رعاية الحكومات الاستعمارية، كالبريطانية والفرنسية والبلجيكية والبرتغالية، اكتسبت الكنيسة أتباعاً بين الوثنيين خاصة في المنطقة الواقعة (جنوب الصحراء)⁽²⁰⁾ المستعمرون في كثير من البلدان الإفريقية منعوا المسلمين من ممارسة شعائرهم الدينية علانية، وإذا تكلم إفريقي باللهجة العربية يعاقب، ومنع ارتداء الزي العربي ... حتى أن الحاكم العام نصح أحد المفتشين قائلاً: (ومن وقت لآخر، وفي محادثاتك، الودية مع زعماء العشائر يجب أن تؤكد لهم أن أليق مسلك بهم هو أن يحافظوا على عاداتهم القبلية، فيما يتعلق بالزي وما أشبه ذلك من أمور)، كما أرغم الذين تسموا بأسماء عربية إلى تغييرها⁽²¹⁾. ولم يبق إلى جانب هذا الظلام سوى جهود المبشرين بالدين المسيحي الذين تولوا شؤون التعليم، وتقديم كثير من الخدمات الاجتماعية. إن قوى التبشير العالمي ليست إلا امتداداً لسيطرة الغرب، وامتداداً لغلبة الحضارة الأوروبية فكرياً وتقنياً واقتصادياً... ومعنى آخر صارت حضارة الغرب هي الحضارة الطاغية في عالم اليوم، فسعت لفرض سلطانها على الأمم الأخرى بكل الوسائل سلمية كانت أم عسكرية. وفي كثير من المناطق في القارة الإفريقية اتخذت إجراءات لكي توقف العلاقة والتمازج بين الشمال الإفريقي والجنوب الإفريقي - مثلاً في السودان الوطن الذي يمتد من الشمال إلى الجنوب مسافة ميل اتخذت فيه الإجراءات الآتية:

1. نقل الموظفين الشماليين بالجنوب إلى الشمال.
2. منع التجار الشماليين بالجنوب من الرخص التجارية.
3. ترحيل الذين استوطنوا الجنوب إلى الشمال.
4. مقاومة الإسلام في كل مظهره.
5. منع تدريس اللغة العربية بالمدارس⁽²²⁾.

عمد المستعمر على اجتثاث جذور الثقافة العربية الإسلامية، وفرض مؤسسات تعليمية حديثة، تستمد فلسفتها ورؤاها من الثقافة الفرنسية، ومن المظاهر التي ترمز لبطش المستعمر وقسوته ووحشيته، ورغبته في طمس مظاهر الثقافة العربية والإسلامية استئصال شافة العلماء. الحادثة المشهورة بمجزرة الككب (الساطور) التي ارتكبها الضابط الفرنسي الكابتن دكوري، في صفوة علماء وداي وأعيانها، وهم يؤدون فريضة الصبح، مكان ذلك في يوم الخميس 27 محرم 1336هـ 1917م حين حاصرتهم القوات الفرنسية بالنيران ثم شرعوا في جز رؤوس العلماء والمصلين بألة الساطور، وانتقل المشهد الدامي إلى مواقع أخرى بمدينة أبشي، واستمر من فجر يوم الخميس إلى عشية يوم الجمعة، ولم تسلم بقية مدن وداي من هذه المجزرة، التي راح ضحيتها ما يتراوح بين أربعمئة إلى خمسمئة عالم وحافظ دفنوا كلهم في قبر جماعي في أم كامل وسط المدينة، أما من أفلت من هذه المجزرة من العلماء ووجوه القوم، فقد هاجروا إلى دارفور المجاورة، ولا يزال عقبهم بها حتى يومنا هذا، ثم عمد الفرنسيون وأتباعهم إلى خزانات العلماء، فجمعوا ما بها من كتب ومصاحف فأحرقوا معظمها وأرسلوا ما تبقى منها إلى المتاحف الفرنسية⁽²³⁾.

وعلى الرغم من محاولات الفرنسيين الرامية إلى طمس مقومات الثقافة العربية الإسلامية لأهل وداي بوجه خاص، وأهل دارفور بوجه عام، فقد لاقت مؤسسات التعليم الفرنسي عزوفاً شديداً من المواطنين.

ورغم كثرة التبشير المسيحي وانتظامه، وضعف الدعوة الإسلامية، فإن نتائج الإسلام باهرة. وقد استطاع الإسلام أن يجد طريقه إلى إفريقية المدارية والاستوائية عن هذه الطرق، بل استطاع بقوته الذاتية وفضائله أن يجد طريقه عبر الصحراء ذاتها، المستحيل عبورها وأن يصل إلى أهلها ويدخل قلوب أهلها شيئاً فشيئاً.

الحلول لإشكاليات الدعوة والثقافة الإسلامية في مجتمعات إفريقية جنوب الصحراء:

الدين الإسلامي بوصفه ديناً نابضاً يحمل معه إشعاعاً قادراً على اجتذاب الأمم وبلوغ الآفاق. ويمتاز بقدرته على تشكيل الحياة ونظمها بما يفيض به من قيم وتشريعات تصلح لأن تهتدي بها نظم الحياة.

أولاً: إيماننا بالكتب السماوية والأنبياء والرسول. قال تعالى: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)⁽²⁴⁾. واعتارفنا للأديان الكتابية بقيمة روحية، ويعزز هذا الفهم قول النبي ﷺ: (الأنبياء إخوة من علاتٍ أمهاتهم شتى ودينهم واحد)⁽²⁵⁾ إن الفهم المتسامح لهداية الإسلام هو الذي يطابق مقاصد الشريعة وهو الذي يواكب ظروفنا المعاصرة، وهو الذي يخدم مصلحة الإسلام لأن في مناخه صار الإسلام أوسع الأديان انتشاراً في كل القارات. ولعل من المميزات والخصائص التي جعلته أوسع انتشاراً:

ثانياً: الدين الوحيد بين الأديان العالمية يقبل التعددية الدينية من حيث المبدأ لا كأمر واقع. فالأديان الكبرى الأخرى مكبلة بقيود لا تسمح لها بالحركة إلا على حساب إسقاط بعض عقائدها.

الإنسانية محتاجة للدين ولكن الدين الذي يناسبها هو الذي ينطلق من قيم روحية وخلقية تقوم على مقاييس غير ذاتية، وفي نفس الوقت تتعامل مع الحياة الدنيا بإيجابية وتطلع لدين لا يحصر القيمة الدينية حصراً طائفيًا. وهذان الشرطان لا يتوفران إلا في الإسلام، مما يعطيه خصوصية استيعابية لا خصوصية انطوائية.

ثالثاً: الإسلام ومن مرجعية نصوصه يعترف بالتعددية الدينية تعددية تقتضي التعايش، والتسامح، والحوار. فالإنسان مجبول على فطرة دينية إيمانية. فديننا مفطور على ذلك في سعة وصدر رحب. قال تعالى: (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)⁽²⁶⁾ وسعة صدر المؤمن التي يباهي بها الله سبحانه وتعالى. وفي الحديث القدسي (لم يسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين من الوداع)⁽²⁷⁾

صلح الحديبية: ولنا في رسول الله أسوة حسنة بالصلح: حتى في كتابة نص الوثيقة واعتراضهم على بسم الله الرحمن الرحيم، بقول سهيل ممثلاً قريش: لا أعرف هذا ولكن أكتب (باسمك اللهم) وأعرض على محمد رسول الله، فقال سهيل لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك. ولكن اكتب اسمك واسم أبيك... ولما فرغ الحبيب المصطفى ﷺ من أمر المصالحة، وكان من بنود وثيقة الصلح أن يعود محمد رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة على أن يعتمروا من العام المقبل، من

هنا أمر الناس بالتحلل من الإحرام ليعودوا إلى المدينة، فكَبُرَ عليهم ذلك ولم يفعلوا، فدخل على أم سلمة رضي الله عنها فقالت له: انحر هديك وتحلل ، فسوف يفعلون ما تفعل. وكانت رضي الله عنها سديد الرأي، فنحر النبي صلى الله عليه وسلم هديه وحلق رأسه، وتحلل من إحرامه، فما أن رآه أصحابه حتى فعلوا فحلق بعض وقصر بعض، فقال ﷺ (يرحم الله للمحلقين قالوا والمقصرين يا رسول الله؟ قال يرحم الله المحلقين. قالوا والمقصرين؟ قال : يرحم الله المحلقين، قالوا والمقصرين يا رسول الله؟ وفي الرابعة قال: والمقصرين. ويسألونه لم ظهرت الترحيم للمحلقين - أي قويته - أي دون المقصرين؟ قال (لم يَشْكُوا. وقفل رسول الله ﷺ عائداً إلى المدينة مع أصحابه. وأثناء مسيره نزلت عليه سورة الفتح (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا)⁽²⁸⁾ إلى آخر السورة وقد اشتملت على جل أحداث غزوة الحديبية مما تم فيها وما لحق بها من فتح خيبر وفوز المؤمنين بغنائم خيبر، والبشائر بعمره القضاء وقامها على الوجه الأكمل بعد عام واحد من تلك الأيام، وبذلك صدق الله ورسوله رؤياه المبشرة له وللمؤمنين بدخولهم مكة آمنين غير خائفين⁽²⁹⁾.

والإسلام يعترف بقيمة إيجابية للأديان الأخرى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)⁽³⁰⁾

رابعاً: التسامح الديني. إن التسامح الديني بالنسبة للمسيحيين جزء من مبادئ حرية الرأي التي عمت الدعوة إليها أنظارهم بعد عهد الإصلاح وعهد اليقظة وعهد الثورة الصناعية والديمقراطية فهو إذن مبدأ زمني ولا مجال له في أصل اعتقادهم الديني . أما الإسلام فيحترم ويعترف بالأديان الكتابية وتسامحه نحو أنصارها، تسامح ينشأ من أصل عقيدة المسلم، والتشريع الإسلامي يعترف بالعلاقات المدنية التي تقوم بين المسلم والنصراني واليهودي في الزواج وفي أكل طعامهم وما إلى ذلك من المسائل المدنية والمعاملات، ومثل هذا الاعتراف غير موجود في الأديان الكتابية الأخرى نحو الإسلام، ومهمة التسامح وإتاحة الحرية الدينية أشق على المسيحيين.

إن أصلح بيئة ينتشر فيها الإسلام هي بيئة التسامح الديني، وحرية الأديان وقد كان الاستعمار في أشكال متعددة يحول دون هذه الحرية.

نحن كمسلمين نثق في مستقبل الإسلام وثقتنا من مصدر اعتقادنا أنه الحق وأن

لغير المسلم أن يرى ما يشاء، ولا نريد الدخول في حجج، ولكن نورد الأسباب العقلية التالية:

1. وضوح العقيدة الإسلامية فإن الله واحد وأن محمداً عبده ورسوله الذي اصطفاه ليهدي الناس سبل الخير والحياة الكريمة في الدنيا وحسن الثواب في الآخرة، وأن يوضح لهم سبيل الشر لاتقائه. فلا جدال حول طبيعة الله ولا جدال حول طبيعة الرسول. أما المسيحية فإن عقيدة الثالوث، وطبيعة المسيح الإلهية البشرية تلبس على الناس.
2. إنه بالرغم من وجود مرارة في إفريقية نحو العرب والمسلمين بسبب تجارة الرقيق واستغلال المستعمرين لذلك في أغراضهم إلا أن حنق الإفريقي على الأبيض أبعد غوراً وأكثر فعالية وإن اندمل جرح كينيا بعض الشيء وطابت بعض النفوس بجلاء الاستعمار عن أقطار إفريقية فإن روديسيا وجنوب إفريقيا وزنوج الولايات المتحدة سيشتع مرارة نحو الرجل الأبيض، ودين الرجل الأبيض، في طول وعرض إفريقية السوداء وهذا الشعور سوف يعمل لجانب الإسلام في إفريقية.
3. أن من أكثر مسائل اليوم مسألة التعايش ما بين الأجناس المختلفة (الألوان) وقد دلّ الإسلام على أنه أكثر الأديان فعالية في هذا الصدد.
4. البيئة الإفريقية بيئة متأثرة بالوجود العربي والإسلامي إلى حد كبير فإن حوالي 70 % من جميع العرب يسكنون في إفريقية كما أن الممالك الإسلامية التي نشأت في غرب إفريقية جعلت الإسلام ديناً مستوطناً في إفريقية⁽³¹⁾. نعم هناك الجيوش الجرارة والأجهزة الظاهرة وغير الظاهرة، لتلك الدول المتقدمة في القوة كما كان الأمر من قبل مع فارس والروم، ولكن لا بد من المسلم الذي يعرف العالم بالإسلام لا خطباً ولا كلاماً طويلاً بل سلوكاً إسلامياً صحيحاً يترجم الإسلام ويقدمه نموذجاً مطبقاً في الحياة.
- إن خيار المسلمين ينبغي أن يكون واضحاً، باتجاه الحوار وتنقية الأجواء، وعلينا أن نقف دوماً مع التواصل الحضاري الذي يقود إلى ما فيه النفع بإذن الله، وتلافي الصدام الذي يهلك الحرث والنسل.

الخاتمة: واشتملت على النتائج والتوصيات.

أولاً: النتائج: من خلال الدراسة ظهرت لي بعض النتائج أذكر منها:

1. الدوافع الدينية القوية وارتباط العلاقات الثقافية والتجارية مع الدول الإسلامية والعربية، هذه الدوافع والعلاقات زادت من الحاجة لتعليم اللغة العربية.
2. التنصير عبر المستعمرين عمل على محاربة هذه المجتمعات بمحاربته للإسلام وعقيدة الإسلام.
3. يقع على حكومات دول إفريقيا جنوب الصحراء ، عبء تنفيذ الخطط والتوصيات التي وضعت للتعليم، وانتشار هذه اللغة بصدق وإخلاص.
4. إن مجتمعات إفريقيا جنوب الصحراء كانت على صلة بمراكز الثقافة الإسلامية في العالم الإسلامي، وكان سلاطين هذه المجتمعات يولون عناية فائقة بالمساجد والمؤسسات الإسلامية، ويخصون العلماء والطلاب بالهبات والمنح، ولم تكن رعايتهم مقصورة على حدود سلطاتهم، بل كانوا يرسلون الهبات لمساجد مكة والمدينة ودار فور وسنار والأزهر.
5. التسامح والتعايش وإتاحة الحرية الدينية، أصلح بيئة ينتشر فيها الإسلام.

التوصيات:

1. أوصي حكومات مجتمعات إفريقيا جنوب الصحراء خاصة وكل المجتمعات الإسلامية على العمل على تنفيذ الخطط والتوصيات التي وضعت للتعليم وانتشار هذه اللغة بصدق وإخلاص.
2. إقامة علاقات تبادل بين مفكري العالم الإسلامي، تسهم في تطور الثقافة الإسلامية والعربية في مجتمعات إفريقيا جنوب الصحراء، وتتصدى لكشف المؤامرات التي تحاك ضد الإسلام والمسلمين
3. وغزارة الامتيازات التي أعطيت للتبشير المسيحي، إبان عهد الاستعمار.
4. التسامح ما بين معتنقي الأديان الكتابية المختلفة.

المصادر والمراجع: أولاً: القرآن الكريم:

- (1) علي عمر مزي - أوضاع اللغة العربية في زنجبار - معهد الخرطوم الدولي للغة العربية- 1983م -
- (2) مصطفى محمد سعد - الإسلام والنوبة في القرون الوسطى - مكتبة الأنجلو المصرية- 1960م.
- (3) الصادق المهدي -مسألة جنوب السودان
- (4) عبده بدوي - معركة الإسلام في افريقيا -الهيئة المصرية للتأليف والنشر 1970م
- (5) يوسف فضل حسن - انتشار الإسلام في افريقيا - دار جامعة الخرطوم للنشر- 1979م
- (6) حسن مكي الثقافة السنارية المضمون والمغزى، دار المركز الإفريقي الإسلامي، السودان، 1410هـ،
- (7) يحيى محمد إبراهيم، تاريخ التعليم في السودان، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1987م.
- (8) أخرجه الترمذي، 175/3. والنسائي، فضل المتابعة بين الحج والعمرة، 8787/5.
- (9) نعوم شقير، تاريخ السودان، بيروت، دار الجيل، بيروت ، لبنان ، ت 1967م،
- (10) الفيروز أبادي -القاموس المحيط - باب: الرء -فصل الباء
- (11) عبد العزيز الكحلوت - التنصير والاستعمال في افريقية السوداء - نشر صحيفة الدعوة - ليبيا - ط1 - ت 1991م.
- (12) عبد القديم زلوم- كيف هدمت الخلافة - د-ن-د-م - 1962م -
- (13) مصطفى محمد علي- مقال بعنوان (التعليم العربي الإسلامي في جمهورية تشاد-مجلة دراسات إفريقية- جامعة إفريقية العالمية -العدد-16 يناير 1997م
- (14) رواه البخاري : كتاب : ، باب:

- (15) الحديث:أورده العجلوني = في كشف الخفا.
- (16) أبو بكر جابر الجزائري -هذا الحبيب يا محب - دار الفجر للتراث - القاهرة ط-2013م
- (17) يوسف العالم - عميد كلية القرآن الكريم- صحيفة الخليج بتاريخ: 1986/6/11م.

الهوامش:

- (1) علي عمر مزي - أوضاع اللغة العربية في زنجبار - معهد الخرطوم الدولي للغة العربية- 1983م - ص11-
- (2) مصطفى محمد سعد - الإسلام والنوبة في القرون الوسطى- مكتبة الأنجلو المصرية 1960-م، ص221
- (3) مصطفى محمد سعد - الإسلام والنوبة في القرون الوسطى- ص225
- (4) مصطفى محمد سعد - الإسلام والنوبة في القرون الوسطى- ص221
- (5) مصطفى محمد سعد - الإسلام والنوبة في القرون الوسطى- ص225
- (6) الصادق المهدي -مسألة جنوب السودان -ص46-
- (7) عبده بدوي - مع ركة الإسلام في افريقيا -الهيئة المصرية للتأليف والنشر 1970-م -ض171-
- (8) يوسف فضل حسن - انتشار الإسلام في افريقيا - دار جامعة الخرطوم للنشر- 1979م -ص- 24
- (9) حسن مكي الثقافة السنارية المضمون والمغزى، دار المركز الإفريقي الإسلامي، السودان، 1410هـ، -ص21-
- (10) يحيى محمد إبراهيم، تاريخ التعليم في السودان، دار الجيل - بيروت - لبنان، ت 1987-م، ص204
- (11) أخرجه الترمذي، 175/3. والنسائي، فضل المتابعة بين الحج والعمرة، 8787/5.
- (12) نعوم شقير، تاريخ السودان، بيروت، دار الجيل، بيروت ، لبنان ، ت 1967م، ص103.
- (13) عبده بدوي - مع حركة الإسلام في افريقيا -ص9-
- (14) سورة النحل - الآية 125-
- (15) يوسف فضل حسن - انتشار الإسلام في افريقيا - ص28-
- (16) الفيروز أبادي -القاموس المحيط - باب: الراء -فصل الباء
- (17) عبد العزيز الكحلوت - التنصير والاستعمال في افريقية السوداء - ص35-نشر

- صحيفة الدعوة - ليبيا - ط 1 - ت 1991م.
- (18) عبد القديم زلوم- كيف هدمت الخلافة - د-ن-د-م - 1962م - ص181-
- (19) الصادق المهدي - مسألة الجنوب- ص7-
- (20) يوسف فضل حسن - انتشار الإسلام في افريقيا - ص33--34
- (21) أنظر: الصادق المهدي - مسألة الجنوب - ص 16-
- (22) أنظر: الصادق المهدي - مسألة الجنوب - ص15-
- (23) مصطفى محمد علي- مقال بعنوان (التعليم العربي الإسلامي في جمهورية تشاد-مجلة دراسات إفريقية- جامعة إفريقية العالمية -العدد-16 يناير 1997م-ص30
- (24) سورة البقرة -آية285-
- (25) رواه البخاري -ومسلم وأبو داؤد.
- (26) سورة الروم -آية30-
- (27) الحديث:أورده العجلوني = في كشف الخفاء.
- (28) سورة الفتح -آية 1-
- (29) أنظر: أبو بكر جابر الجزائري -هذا الحبيب يا محب - دار الفجر للتراث - القاهرة ط-2 2013م - 279-281
- (30) سورة البقرة - آية62-
- (31) أنظر: الصادق المهدي - مسألة الجنوب- مرجع سابق - ص47--48